

حَدِيثُ الدَّرْبِ ...

قصة بقلم يوسف محمد المحمود

والفم معا . يومذاك وقف على رشيد القمع ، ثم قال ، وهو ينوي المزاح :

– أرى بقراتك ، ما شاء الله ، ضعفاً لاسبوع الماضي ، يا أبا دياب! فزحزح أبو دياب شفتيه ، اللتين قلما يفلتانهما من بين أسنانه ، ورد :

– بركة الله ، الربيع يكثر الفراش والمصافير ، إلا يكثر البقرات؟
– أتبيع هذه الصبحة ؟
– ليست لي ..
– آ ، صحيح . هذه بقرة ديوب العاصي . لعله يبيعه ، فهل هو وراؤه ؟

– يعلم الله أين ترابه .. ذهب الى الحرب .
– الحرب ! من يقوم له بشغله ؟
– أقوم الآن برعي البقرات ، وفي يوم الحصاد سأجعل يوماً في زرعي ويوماً في زرعه .
– كل الناس أبو دياب ؟ بارك الله فيك ، هكذا الجار !
– ماذا أعمل .. الحرب لا قدرة لي عليها ، أفلا نمكن منها أربابها ؟

– ياليت كل الناس يقدرتون مثلك .
– كل الناس خير وبركة .. لقد ذهب ، في هذين اليومين ، أكثر من ثلاثين رجلاً . والله لو كان في قدرة ما تركت أحداً يسبقني ، ولكن – كما نرى – صارت يدي ترجف بالسيجارة .
واستمر الضباب كأنما تدفعه أمامه عيناه ، كأنه هالة لوجه ديوب العاصي .. حاجباه المقرونان يلتقي سوادهما بسواد ناصيته النافرة من تحت الكوفية والعقال كجذور شجرة تشق جدار قلعة قديمة .. وجهته شق صخرة بركانية شطرت حديثاً فلا تزال تلمع .. كنفاه جناحا صقر يهيم بالطيران عمودياً ، وعيناه شطرتان من الصوان الحاد ، يخيل لمن يراهما أن جفنيه لا ينطبقان حتى في النوم .. يمشي قطعة واحدة كجذع بلوط أسودت في قلبه مئات السنين فلا يعود ينفذ فيه الرصاص !

كان ديوب العاصي لا يعرف نفسه إلا وهو يطرق ذلك الدرب مرتين كل يوم . فالبيت هو الطرف الأول والحقل هو الطرف الثاني . والدرب من تحت قدميه كقنان سيارات الشحن . تارة ينوء بما يحمله ديوب العاصي من الحقل . وتارة كشرط التسجيل ، يتلقى فيض كل حال من أحواله . فان اطمأن الى خصب الحقل .. ان حفلت ضروع البقرات بالحليب ، رفع صوته بالفناء ، أو وقع أنقامه صفيراً كنجلة تشير سخاء الزهر برنينها .

وان داهمه البيت بالمضايقات ، أو أنغره الحقل بالاخلال بحساباته .. أو أخذ « الطباقي » بأشداق البقرات و « التقريع » بأظلافهن ، لوى رأسه كعصفور أضناه الطيران فلا يجد أرضاً يفمرها الثلج ، ونثر أهاته غناء أيضاً ، ولكنه يلزم فيه حد الصلاة فلا يتجاوز أذنه هو .

ربما كانت تلك الاحوال تنكرر ، ولكن ديوب العاصي لا يتلقاها باحساس متكرر ، كان كل خطوة يخطوها في الزمان لها درجات فسي

– ما اسمك ، يا صبي ؟
رشقه الصبي بنظرة فاحصة ، وقال :
– كما أسماني أهلي !
– ابن من ؟
– ابن أمي وأبي ..
– كيف تأكدت من ذلك ؟
وأدنى الاستغراب من جفني الصبي قليلاً ، ثم بلا ميلالة :
– أأنت ابن أمك وأبيك ، أم ان للبلغة أبنا ؟!
وتجاوز الرجل الشطر الثاني ، وهو يرد :
– على ذمة أمي ..

– ألا تزال فوق الأرض ؟
– ترغب أن تخطبها اليّ !
لمع شدقا الصبي بانتمامة هشة ، وقال بنشاط :
– أأنتها تحت الأرض ، فانت رجل كبير !
– اذن ، أبواك لا يزالان فوقها ، فكيف ترعى أنت هذه البقرات ؟
– كلا ! .. قتل أبي .
وتلمست يده قصبه علقت في كتفه كالبندقية ، ثم عاد يقول :

– شاربك كبير ، فكيف لم تذهب الى الحرب !
– الهر شواربه أكبر ، فهل يذهب الى الحرب ؟
– ولكن أبي ذهب . ألم تقل لك أمك : اذا ما صار شارب الرجل يمسك برأس اصبعيه ، فعليه أن يذهب الى الحرب ؟
والنتفت معجلاً يصيح : « صبيحة . لا تمدي بوزك الى الزرع .
عبد الله وراؤنا ، ابن حرام ، فلا يفلتك بلا « قطعة » .
ولكن الصبيحة كانت أردع للرجل منها لاطماع البقرة . فرفع رأس البقرة عن العشب المنحسر في جانبي الطريق ، بينما كانت تقتحم عينيه ، اللتين بدا فيهما الدمع كدم جرح في يوم بارد ، صورة ديوب العاصي الذي كثيراً ما صادفه في هذه الطريق ، فيدخن معه سيجارة عربية من على ظهر بقلته ، وهما يتبادلان الحديث عن الاسعار والمواسم هذا العام .

ولم تكد البقرة تجرد في سيرها حتى لاحت له امرأة ، تقور تارة وترتفع تارة أخرى ، كأنما الطريق ، كما يراها ، قد كسرت بزئال .. وشبه ضباب فاتر يحاول أن يفمرها .

انها مائلة قليلاً الى الامام تحت حمل حشيش غض ، تدلى حتى كتفها ، فجعلها لا تبصر من الطريق الى أعلى من ركبتيها . ثم سمعها تقول للصبي : « ألا تزال هنا كأنك تمشي على بيض ! ألم أقل لك ، لا تدعني أراك إلا في البيت ؟ سق البقرات ، كفاهن ما رعين . اركب الحمار فالارض تسلق القدمين . لماذا لم تقرب مع رشيد هذا اليوم ؟ » ومضت تغني بصوت يزدرد التعب بعض مقاطعه :

سنين كثير من العمر مريت وعيشتي ، يا حبيب القلب مريت
وبتذكرك كل ما بالدرب مريت وبشوف وجهك نابت عل عشاب .
خس الرجل بقلته في جانب الطريق حتى تجاوزته ، فاستأنف السير ، بينما كانت خواطره تستأنف العودة الى ضحي يوم ، كأنما رش جوه بمسحوق أريد صلب يكبس النفس ويحاول أن يرده من الانف

الاحساس . والجديد الذي يسجله الدرب لا يمحو القديم كما هي الحال في عرف أشرطة التسجيل .. من الوادي بدأت ، يا ديوب العاصي ، وكلما ارتفعت في جبل الزمان اتسع مدى رؤيتك ، واعتورتك تأثيرات المناخ .

وأحيانا كانت نظراته تضيع في صمت موحش . فيرى كل بقرة من بقراته قد صارت اثنتين ، ثم يتلاشين ، ولا يعود يحس الا بأصوات امتصاص كامتصاص الاسمنت المسلح اذا ما سقي الماء مساء يوم قانظ في بضعة الايام الاولى لصيبه .. يعلم الله أين وصلت ، يا ديوب العاصي ! ثم يتجلى السديم ، فيرى أول ما يرى أرنبة أنفه كأنها سقطت ظله في بركة فوقه .

الحقول هي نفس الحقول . فاذا ما استرد منه مالك حذلا عوضه من مالك آخر ، وحاشا الله أن يقطع مخلوقا ، والدنيا ما عليها بخيل ، فمن لم يجد عليك جاد على غيرك . والبيت هو ذاك البيت يكساد التواضع يطمسه في الارض ، ولا يفوت بابه أن يشارك الارض بشرب المطر حتى لا يعود يفلق الا على شفا الصدغ الداخلي . واذا ما تقلب الشتاء ربما فاضت قرانيه بالينابيع وشقتته السواقي الى الباب . أما سطحه وجدرانه التي تظن كل صيف فربما زادت قوة الانبات فيها على قوة الحقول ، فيلوح كأنه دبابة غمرت بالحشيش للتضليل . والمعدة ليست « بيت الداء » وحسب وانما مصدر الحركة الابدية . فلا تستمد من الحقل رطلا حتى تحرق فيه من العضلات ما يسوازي قنطارا ، ومن تحتاجه في شيء يحتاجك بأشياء ، ومن لا يقدم التسعة لا يأكل العشرة . ما أشبه الارض بالمرأة تنتق الرجل في ليلة ، ثم لا يكاد يشب عنها كأم حتى يعود اليها كزوجة !

هكذا يا ديوب العاصي ، من البيت الى الحقل ، ومن الحقل الى البيت ، فلو بقيت ماشيا اما كنت قطعت الدنيا بقرائنها الاربعة . والحديث نفس الحديث ، الموسم جيد أو رديء ، فلو كان مما يكتب ، أما كنت ركمت هذا الوادي بأوراقه ! ولكن الحديث تغير ضحى ذات يوم ...

كان ديوب العاصي على الدرب . بقراته ، كما هي الحال في اكثر الاحيان ، يتسابقن مع بقرات جاره رشيد بالتفاف العشب المنحاز بين حجارة الطريق ، فيصلن الى البيت دون أن يفقدن شيئا مما أصبته في الحقول . كان يرد على رشيد :

— ضع رأسك بين الرؤوس ، وقل : يا قطاع الرؤوس . اذا حلق جارك برك لحيكتك . انهم لا يريدون فلسطين وحدها ، وليس مسن أجلها وحدها جاءوا . آباؤنا كانوا يساقون الى السفر يرك ليحاربوا مع اللولة التي حاربوها مرارا وتكرارا ...

وتعجل رشيد القول :

— الحق معك . ولكن اذا ذهبت فقلت ، لا سمح الله ، فان بقراتك سيبقيين في الدار . أمك عاجزة وابناك في « اللوفوة » . امرأتك .. صحيح انها نشطة ، ولكن كثرة الشغل تعمي القلب ، والبيت بغير رجل كالطعام بغير ملح . الزرع ، ما شاء الله ، « دف سبل » جمعة ساخنة مثل هذه الجمعة يقع الحصاد . أرضك « مبعزة » ، في الوادي ، في الظهر ، في هذه الناحية وفي تلك .. « الطرش » يتلفها تلقا ، وأصحاب الارض لا يرضون منك بهذا . أنت رجل شغيل ، ومع هذا فانك تشهق فلا تلحق . هل تستطيع امرأتك ان تنام على البيدر في البرية ، والليل يجزعه منه كل صنديد ؟ جنيات عين مسعود يأخذن عقلها ، ألا تعرف النساء ؟ انظر عدة ايام .. أمس كانوا يقولون في السوق ان الدول الكبرى تدخلت للصلح .

— هذا هو عقلك ! من يشعل النار ليحرقك هل يطفئها ؟ من لا يدبر اموره بنفسه ليس برجل . الرجال خلقت للحرب . اليهود يجتمعون علينا من اطراف الدنيا ، يقتلوننا في أرضنا ، ويعيشون في بيوتنا ، ونحن على ضربة حجر بمقلع فلا نذهب لردهم . هم يتركون متاجرهم في عواصم العالم ويأتون لاستلاب أرضنا وهناك أعراضنا وأنا لا أترك رعي أربع خمس بقرات ! الرجال للحرب وليس لرعي البقر

والتشاؤب على الدرب .

— حكيك صحيح والله . أتظن أن دمك أسخن من دمي ، لا وحياء سيدنا الخضر ، ولكن ...

— شغل ضروري وشغل أضر . الحرب لا تنتظر . أخبار تشير النخوة . والله ، وما لك علي يمين ، ما وجدت للنوم طعاما منذ وقعت الحرب . انسان يقطع البحار والقفار ليسلبك بيتك وأرضك ويقتل أولادك ويفضح زوجتك ، هل تحني له رأسك ؟

— حقا صعبة ، ولكن أولاد حرام ، الدول كلها معهم ، ماذا نعمل ..

— نعمل مثلهم .. نقاتلهم كما يقاتلوننا ، فاما هلكة واما ملكة .

— أولاد حرام !

— من لحم ودم مثلنا ، فهل هم من سنديان ونحن من صفصاف ..

بيننا وبينهم ..

— أبو دمر عن صحيح ! والله ، لو كانت بيننا وبينهم لاكلناهم بلا ملح ، ولكن الدول ...

— ما شان الدول بنا ! هذه الدول التي تصف معهم لو جاء اليهود يحتلون أرضها ويقتلون أهلها ، هل تقول لهم : أهلا وسهلا !

— غريب ! يحكون عن أوروبا انها متمدنة ، فكيف تساعد أساسا لاحتلال أرض الآخرين وتقتيلهم فيها ؟

— أوروبا تتخلص بذلك من عدوين . أولا ترتاح من اليهود في بلدانها ، وثانيا تشغلنا نحن بهم .

— يا عمي .. نود الخل منه وفيه . لو كانت العرب يدا واحدة من كان يجرؤ عليهم ، ولكن هذا يشد وذاك يرخي ، والاجانب خبثاء ، يدسون بيننا ويشغفون شغلهم .

— هذا هو قولنا . صار فينا مثل ما صار بجحا . قالوا له :

رائحة وحشة في ضيقتك . قال : اذا لم تكن في حارتي فلا يهمني . قالوا : بل في حارتك . قال : لا يهمني اذا لم تكن في بيتي . قالوا : في بيتك هي . قال : اذا لم تكن في أنا فلا أبالي . أخيرا ستكون في ظهورنا جميعا .

— يفرجها الله ...

— جل اسم الله ! اذا جاء واحد وأخذ بقراتك من أمامك ، هل تدعو الله أن يرده ، أو تكسر أنت رأسه ؟

— أخذ الحق صعب ، والله .

— كاني على نار . أنا هنا والحرب عاقلة ! كيف يسمع العالم ان اليهود يقتلون العرب ويأخذون أرضهم . كم يحط هذا من شهامتنا ، ومن له عين يظهر بين الناس بعدها !

بخار الماء يبدو كأنه يتسع ويضيق كفلاصم صفادع أجهدها حفلة نقيق حادة . وأحيانا يظهر كمنحل هارب ، ولكنه متواصل بلا نهاية . الجو ، وقد أخذت الشمس ندلف نحو الظهيرة ، يندر بشيء من الحر . أسراب من النساء ، بعضهن يحملن حثيشا تفسب عليه الصفرة الشاحبة ، وبعضهن يحملن « بلانا » تستد به الخضرة الى حدالسواد . أكثرهن قد حشون أحدىتهن في خواصر الحملة ، اما توفيرا للنعل ، واما تخففا في نقل الاقدام التي يحثها نقل الحمل من الرأس وحرارة التراب من تحتها .. وواحدة في الطليعة تغني :

يا طير الهيبي ، يا طير الهيبي مين قال اسماعيل يخطف وهيبه محمد ، يا محمد جب الطبيب صبي اللي بطننا طالعو ستونا وواحدة في المؤخرة ، متوسطة السن ، تحرص أن تصل حبسل السرب ، ولكنها تشد التي قبلها بسؤال لاهت :

— ما رأينا ثمرة اليوم ، هل سبقتنا ، ام انها لا تزال وراءنا ؟ وردت تلك بما يشبه الامتعاض :

— ما شاء الله ، كم تتظاهرين أنك لا تعلمين شيئا ، زوجها ذهب الى الحرب !

— باسم الله الرحمن الرحيم ! وحق الذي خلق الخلق وقسم الرزق ، ما دخل هذا الخبر أذني الامك . هل جن ؟ أولاده صفصاف

ورؤفه لا تاكله النار ،

— جن أم لم يجن ، ابنك أليس في الحرب !

— ابني عسكري ...

— وهذا شاب ثارت نخوته ..

— لهذا ، اذا ، رأيت أمه ، وكانت تأخذ دور الحليب الى جارتنا ، تبكي . ظننتها قد تناكفت مع كنتها ، فلم أجرؤ على تكليمها . كنتها صعبة ذوقتها الزيت المغلي .

— يا أختي ، كنانن هذه الايام أشد من الحرب . أما هو ، فابن حلال ، والله دائما الى جانب أمه .

— نصرهم الله وحماهم جميعا ليحمي لنا ذلك الصبي . والله لو كنت في الحرب لكنت أكثر ارنياحا . قطع الله اليهود ، من أين جاءتنا هذه المصيبة ! ما تخلصنا من تركيا حتى داهمتنا فرنسا ، وما ارتحنا من فرنسا حتى هاجمنا هؤلاء . ماذا عملنا للرب !

— الراية البيضاء على فرنسا ! صحيح كانت تحتل الارض ، ولكنها تركتنا في بيوتنا ، أما اليهود ، يا رب أجرنا ، فانهم يأخذون الارض ويدبحون أهلها . كنت أمس أشتري ملحاً من السوق ، فسمعتهم يحكون العجائب : المرصع يدبحون طفلاً على ركبته . والحامل يشقون بطنها ويتركون جينها متدللاً ، وما سواهما فيفضحون ، يارب سترك . الموت ولا الفضح .

— لا تسميني مثل هذا ، يكاد أن يفمي علي . كان الله في عون أهل تلك البلاد .

— الله لا يحارب . ولكنه يقول : قم ، يا عبدي لا قوم معك ، واقعد لقطعك . يا ليت كل الرجال مثلك ، يا ديوب العاصي .

انقضى موسم الحصاد ، وفي نفس تمرة حساب لغير الغلة التي جنتها لأول مرة من حصاد لم تمتد اليه يد زوجها . احاديث كثيرة شعنتها في تلك النفس ، وهي تغدو وتروح على ذلك الدرب . ولكن حساب الحرب كان أكثر تردداً والحاحا في كل نفس . هل يعود ديوب العاصي أم تسقطه من هذا الحساب ؟

قالت لها إحدى جاراتها بحق ذات يوم :

— تكلمي .. ألم يعد لك لسان !

وغفمت دون أن ترفع شفيتها مع مقاطع كلماتها :

— لماذا الكلام ! وجدت نفسي يتيمة ، فلم أدر كيف عشت . فهل يشق علي أن أعيش أرملة لا أدري كيف أجمل ولدي يعيشان ؟ وقالت الجارة بأسى :

— لو كان بين الاحياء أما كان يذكركم بفصاصة ورق ؟

ولكن وجه تمرة المغزلي غار من فوق فكيتها ، وظلت ملامحه الكثيفة كخطوط الطوبوغرافيا تشير الى شدة ارتفاع الجبل ، ظلت كما يظل احساس الذي فقد أحد أعضاء جسمه حديثاً ، انه لا يزال ينعم بذلك العضو . أما عنقها فانها ، على قصرها ، غاصت بين كنفها ..

انها لا تبكي . ربما كانت في يتمها قد بكت عن كل ما ستعيشه . انها تعتسف الدرب حتى لاتصادف امرأة عليه .. النساء كاليوم لا ينقلن الا اخبار السوء . واذا ما كانت في البيت ، فانها لا تسعى للجلوس الى جارة .

حتى حمائها اذا ما طلبت اليها شيئاً ، لا تجيبها بصوت . بل تفعل ما تشير اليه متحاشية رفع بصرها فيها ، كما تتحاشى حركة لسانها . مرة قالت :

— أراك لم تعودي تذكرين زوجك لا بشفة ولا بلسان !

— كان الله معه حيث كان .

— لمحت ساعي البريد منذ يومين قادماً باتجاه الحارة ، فهل دفع اليك شيئاً ؟

— متى كنت أخفي عنك خيراً أو سوءاً !

— قلبي يحدثني بما نكره ، فلعلك تتكلمين علي ...

— ان تكلمت أنا فالناس لا يتكلمون علي ما يخص جيرانهم .

— أرى يتمك فد أعدى بنيك .

— ماذا تريدن ، ألمليح من الله والرديء مني أنا ؟

— كنت مارة أمام دكان الترك .. كانوا يقرأون « كزيطة » ، فلما ابصروني طووها .

— تحكين بالساعة مليون كلمة ، فلماذا لم تسألهم بكلمتين ؟

— اخرستني الدموع .. اللاجئون صاروا في كل بلدة .. رئيس المخفر يطوف على وجوه القرى لجمع الفرش ..

— ما عندنا فقد أعطيناه !

— أي والله ، أعطيت من كيس الذي خلفك . أما كفاك شقاء اليتيم حتى تكلمها بشقاء الترملة ؟ كيف تكلم كان القط لم يأكل لها خميراً . وقامت الى النوم . انها لا تجد مهراً من نفسها ، وكان يكفها ان تهرب من الآخرين ، فكيف تمادت مع حمائها ؟ كيف اقتحمت عليها نفسها ، والقت فيها هذه الحفنة من الاشواك ، « أرى يتمك فد أعدى بنيك » ، يا لشوك الصبار ، في اليد لا يطاق ، فكيف به في الاعماق !

من هنا نفذت . هذا ما سترميها به كلما دق الكسوز بالجرة . وظلت عينها تلمعان في الظلام . آه ، كيف تضيء العينان بالدموع ! انها لا تحس في البيت ، فهل هي في العراء كما يمكن أن يكون زوجها؟ ولم تمنع في التساؤل . وجهه الذي يحده طرفاً الكوفية « المززررة » المتحدران على الصدين حتى اذا ما التقيا تحت حنكيه ،

اصعد كل طرف بعكس جهة الانحدار الى أن يفرضها تحت العقال .. واذا ما كان البرد مؤذياً رفع طوقاً مما تحت الحنكين وتلثم به ، وظل أنفه نافراً كبيرم البلوط . هذا هو الاطار الذي يبدو لها به ذلك الوجه . ما أقل ما يظهر منه ، ولكن السماء أكبر مما ترى منها ، وهي في قرارة الوادي . عيناه المزهديتان لا تكفان عن الحركة . انهما كمنظار لا تزال ترى فيهما أكثر من هذا العالم . اللمعان لا يفارق جبينه كانه يرشح بالرق في « عز دين » الشتاء !

ظلت هذا حلماً . كما ظنته أن سيكون حقيقة . اذ أنه قلما عاد ، اذا ما كان غائباً ، الا في الليل .

كلا . لن تعدي ولديها باليتيم . انها لا تماري في أنها نشأت يتيمة ، وعاشت شراسة الضع التي تخلف الجاموسة في اولادها . ولكن الامثال تقول : اذا مات الاب فهناك رب ، أما ان ماتت الام فاحفر وطم .

زوجها نفسه ، هل حدثها مرة عن أبيه ؟ استعرضت كل الذين ادركتهم طفولتها في القرية ، ولكنها لم تر جسماً ورا اسم أبيه . فلتقل حمائها ما يعن لها ، فمتى كانت ترد عليها . وهل يدرك النقص في الناس الا صاحب النقص !

عزمت الخروج عن الصمت . لقد تركه أبوه وحيداً بين ابنتين ، أما هو فقد ترك صبيين . انها ليست شيئاً آخر في هذا البيت ، ففرع الشجرة لا ينمو الا على امه ، والاولاد هم الجذور التي تمسك الشجرة في مكانها . لقد اختار ديوب العاصي مصيره ، وابناه ليسا بحاجة للتساؤل عنه ، فصبيان الحارة لا يتورعون أن يقرعوا بعضهم بعضاً بأي نقص يطرأ على بيت أحدهم . واذا أردت اخبارها فعليك بصغارها . ولكنها ، وغضت على نواجذها ، هي التي ستقرر مصير الولدين معاً .

كلا ، يا تمرة .. لن أجعلهما يخلفانه في حرائة الارض . لسو أن شخصاً في هذه القرية أو في القرى المجاورة قتلك ، يا ديوب العاصي ، هل كنت أرضى لك بعقاب الحكومة ، فكيف ان يكون القاتل من الذين حاولوا أن يقتلوا النبي قبلك ! لعينيك ، يا ديوب . وحق علام الفيوب وكاشف الكروب ما رضيت لك الا دماً بدم .

قالت لها امرأة ، وهي تنظر الى صبي يسوق البقرات أمامها في الدرب :

— كبر الاولاد ، الحمد لله ، وسيربحونك !

وخفت تقول دون أن يبدو التعب في قولها مما تحمل على رأسها :

- لا لهذا أريدهما أن يكبرا . أريد أن أراهما في العسكر ، أن أقول : كبير اليتامى ، يا دياب وجوك !
- أتحرمين منهما كما حرمت من أبيهما ؟
- ما ضاع حق وراه طالب .
- ما دمت تعلمينهما في المدرسة ، أن شاء الله سيوظفان ، ويكفيانك الرواح والمجيء على هذا الدرب . ألم تضجري منه ، فقد نقبته أقدامكم .

- أن لم يقبل في العسكر فأمامهما الخدمة الإلزامية .
- اتركي أحدهما للوظيفة والثاني للدف . . .
- انني لا أريدهما لما أعيش به . بدأت حياتي يتما ، وانتصفت ترملا ، فلا يهمني أن تنتهي تكلا . بل ما يهمني أن أحيي دم زوجي بدم أبنائي كما يحيي التاجر ماله بماله .
- ما شاء الله ، ما أحكمك !
- الدم لن يصير ماء . ولن يكون الابن بغير ما كان الأب . كائني ، كل لحظة ، اسمه يلح علي بهذا . لو كان من يسمعه عندما قتل ما اظنه كان اوصى الاب بهذا .

- إذا ، تريه في منامك ؟
- رؤيته في اليقظة لا تترك شيئا للنوم .
- مسكينة أمه ! طلعت روحها ، وهي تقول : كم كان يخفف من حزني لو رأيته ولو قطعاً قطعاً . . .
- وأنا لا يشفي نفسي الا ان يحارب ابنه حيث قتل .

وظل الدرب مترنحا بين نهاية السفح وبداية الجبل . وكأنه برزخ بين التربة البركانية الشاحبة ، ولا يزال يستند بهما السواد كلما اشتد الجبل سموفاً ، وبين تربة يتناوبها البيض المشرق والشهبة والحمرة ، مستندة الى جدر صخرية قائمة ، او منهاوية في منحدرات لا تهدأ بها حتى تفوص في النهر المتعرج كحبة تنقي الحجارة بالتواها هنا وهناك .

لقد تقلصت الحقول التي تواصل تمررة حرثها ، فملاكها لا يلحقون بها الا لمن تتوفر لديه اليد العاملة والوقت معا . ومع هذا فان تمررة ما تفتأ تغدو وتروح على الدرب . . . ترعى البقرات ، وتختطب او تجمع الحشيش ليكون علفا مع التبن . ومن يوم لآخر يرى معها صبي ضاع لون بظلونه القصير بين الوان الرقع الغليظة ، يعسكر السواد في قذاله وعنقه ، ثم يلزم ساقيه كأنه خلقة وليس من لفح الشمس الملبد بالوسخ . والقصبه المربوطة قبل الطرفين بشرائط مختلفة الالوان ايضا ، لا تفارق كتفه ، سواء اتقى حرارة الأرض بظهر الحمار ، او تتبسع البقرات الباحثات عن المرعى .

وكثيرا ما تتأخر بالعودة الى القيلولة . وصاحب البغلة الذي سأل الصبي ، معايشة ، عن اسمه ذات يوم ، لا يزال يحمل سلعه بين قرينته والبلدة ، ولكن الابتسامه صارت تأخذ مكان الانقباض في شفتيه كلما وقعت عيناه على الصبي . . . لم يعد يسأله بأشفاق : « كيف انت ، يا صفيير » بل انه يقول بصوت مفخم : « كيف حال الشباب اليوم »
وإذا ما أنس فيه الارتياح ، أشار الى القصبه ، وقال :

- كم يهوديا قتلت اليوم ، يا دمر ؟

فيستد دمر اليه ، ويرد :

- لم يبق الا أنت . خذ حذر ، ولا تقل اني غدرتك !

ولا يكفك من فقهه الرجل الا وثبة صورة ديوب العاصي فيرحمه في سره ، ويحاول أن يبت نظراته بين الزرع ، لعله يبصر تمررة ، فيحجبها تقديرا لما تعانیه واعجابا بدمر . ولكن النظر لا يمضي بعيدا تحت الشمس الساطعة . والزرع الاخضر يميل الى السواد كلما دلفت الشمس الى الظهيرة .

سواد رطب في الأرض وضوء ساطع في الجو ، كلاهما يعزز الصمت كما يعزز هدم الليل ، فلا يسمع الا انات الجداجد تنطلق مستقيمة سريعة كطلفات بندقيه الى ارض بعيدة .

من الذي ينمو على الاوهام : دمر ام امه تمررة !
ولكن آمال الرجل التي تحولت الى اوهام تستيقظ في نفسه فتشغله عن الجواب . هذا هو العام الخامس ، وابنه المقرب فسي البرازيل لا تزال الخيبة تمنعه حتى من الكتابة اليه : الاغتراب والحرب شقيقتان !

مرة اخرى تناقصت الارض التي تزرعها تمررة حتى صارت لا تزيد عن حقل واحد . ولكنها تذهب اليه بلا حذر . لم يعد باستطاعة المالك ان يأخذ ارضه من الفلاح اذا ما عن له ذلك . انها تدرس الزرع وتثريه دون ان تستأذن المالك . . . دون ان يحضر ، فيجلس تحت الزيتون في طرف البيدر القروي ، يمصص عظام الفروج المقلي بالسمن . . . لم تعد تكيل الفلة تحت عينيه . هي وذمتها ، ان شاءت ارسلت اليه بشيء ، وان شاءت منعته .

ولكن هواجس تمررة في غير هذا المجال . حقا ، ان الفلاح استرد بعض ارضه التي سلبها عبر مئات السنين . . . لقد ناز بعض الثار ، او كله ، ولكن :

- الثار الاخر ، يا تمررة ان تسترجع حقول فلسطين . . . الارض التي سقاها ديوب العاصي دمه ، ما أن لزوعها ان يحصد !
- انك تحظي ب « مأذونيات » كثيرة ، يا دمر !
- ما رأيت في الدنيا مثلك أما ! الامهات يندرن ألف نذر ليعفى اولادهن من خدمة العلم ، وأنت تضيفين بمأذونية بضعة ايام اقصيها عندك . اراك لم تعودى تطبيقين رؤيتي !
- ليس هذا ما أقصد . ولكن هل رأيتنا نقيب عن حقل الزرع يوما او يومين ؟
- ما شاء الله ، ما افهمك ! كل شيء تقيسينه بالفلاحة والزراعة ؟

انفلت فكاها برعدة هزت كتفيها كأنها تخرج من لدى الموقد فسي ليلة شديدة البرد ، ولكنها الحرارة تفعل بها ما يفعل البرد في غيرها . الشمس ترتع في الضحى .

- حان استيفاء الدين ، يا ديوب العاصي . ما اطلنا عليك . عشرون عاما تقريبا ، ومن خلف مامات . . .
اطلقت ذلك صباحا رغم تشدها بكتم ما في نفسها ، ثم بكت لأول مرة ، وهي تتبع الصيحة :

- قسما بدمك ، يا ديوب ، كل شبر من ارض فلسطين لارفعن عليه مجمره بخور ، ولاصن باقة زهر على كل حجر فيها . ان دمك في كل مياها . لحمك وعظامك في كل ترابها وحجارتها ، وشعر رأسك في نباتها وغصون اشجارها . دمر ، ابن ديوب العاصي ، والله . . .
كبر اليتامى ، يا دياب وجوك !

وتشد راديو الترانزستور الى اذنها . . .

- رحت ، يا ديوب العاصي ، والحصاد على الابواب . . . صرنا في العام العشرين . . . اليوم الثالث لبدء الحصاد ، وهو اليوم الاول للحرب . . . دمر ، ابني ، حصادك هناك . . . كبر اليتامى ، يا دياب وجوك . . .

وتحاول ان تستأنف الحصاد ، ولكنها خرجت عن ملك نفسها . . . حصاد الحرب التي زرعتها منذ عشرين عاما ، اولى منك ، ايها الزرع . قسما بالله لارقصن من اول فلسطين الى اخرها طولا وعرضا . . . عشرون سنة وانا جائعة ، ظائمة لهذا اليوم . البقرة ، زيتونة . . . لا بل أنت ، يا رمان سأجعلك اجرة الطريق . دمر ، لا أريدك راجعا . . . ابن ابيك ، والله يشهد ، فلا تترك النساء ارامل كما تركني اليهود . . . الاطفال لا تركهم ايتاما كما تركوك . . . كلهم جميعا ، رجالا ، نساء واطفالا ، ثمن ما اكلوه من فلسطين . العربي بقي اربعين سنة حتى اخذ بثاره ، وقال : استعجلت . ظنوا انهم اخنوها بلا ثمن . . . لا يموت حق وراه طالب . . . الان استيفاء الحساب .

جنس الرجال !

- ان يقتل ابني في الحرب ولا يهودي يسوقنا كالدواب امامه .
- ماذا سيوصلهم الى هنا ...
- ديوب العاصي لم ينتظرهم امام بيته ...
- فتحي عينك . اهل تلك القرى طفشوا ..
- لا يستحق ان يعيش من يفر عن بيته .. ما بقي حياء للرجال .
- ولكنهم يلاقون الذبح ان بقوا !
- ذبح الانسان في بيته ولا سلامته بالفرار . العصفور عندما يذبح يرفس السكين باظافره . واخيرا اين نلجا ؟
- ما اراك الا جننت ..

- المجنون من يفر عن بيته ..
- اسألني ريك ان يكون قد كتب السلامة لابنك .. الف ام تبكي ولا تبكي امي .
- لا يشرف اما ان تبكي الف ام وتبقى هي بلا بكاء . بل أسأله ان يكون قد كتب له القتل . والله ، مرة اخرى ، ان رجع حيا ، فلا نظرته عيني ، وانا تمرة عند يميني .

- صارت تمرة ترعد بالخوف والبرد معا . انها بين التاسع والثاني عشر من حزيران ، شهر الشمس والحصاد والحرب . فكم كانت تشتهي فيه الظل في النهار ، وكم كانت آملها تسرح مع نجوم ليليه الزهنية كمرافقات نشئن في الطية !
- تارة تحس انها اقيت على رأسها من قمة السماء ، وتارة اخرى كقنفذة غار فيها ريشها السذي اعدته لاختار الحياة ، فاذا به هو الذي يخترق اعماقها .
- لا تريد ان تسمع . ولكن العائدين كثروا ، وكانوا يفرغون رصاص سلاحهم رشا ودراكا في زوايا الليل ، فيفرض على اذنيها السمع ، فتعقب بمقت :

- عشرون سنة ، ونحن نعد للشار ، حتى اذا ما حانت ساعته جئتم ها هنا تفرغون السلاح . أه ، يا دمر ان عدت كهؤلاء !
- جاءتها نقرة خنة حذرة من قبل الباب . انتظرت حتى شفعتها نائية وثالثة ، فالتت بتوجس :
- من بالباب ؟
- أنا ...
- وكان الصوت اخن من النقرة ، فردت واثبة من مجثمها :
- دمر ؟ جئت ، يا بن كيت وكيت ، والله لا نظرت اليك ..
- الرجال خلقت لـ « الفنظرية » !

- أمي ...
- لست بأملك . لماذا أمك ! تنح عن الباب لاخرج . لن يعلوني سقف مع مثلك . تركت دم ديوب العاصي ؟ الان حتى اقيت بموته . انه لم يعقب . اللهم ، اني ما زيت ، ولكنك لست بابنه ولا بابني . الثمار تكون على غصن واحد في شجرة واحدة وتسقى بماء واحد ، ولكن بعضها لا يزكو .. الان اندبك ، يا ديوب العاصي ..

- أمي .. يد واحدة لا تصفق .
- ما ربيتك لآكل من عملك .. جئتم تحدثوننا عن انتصار عدوكم؟ ربيتك لاتحدث بانتصارك ، لرفع لديوب العاصي قبسرا في فلسطين ولاقيم الافراح من حوله .
- وانقطع الصوت من البيت ...

- خرجت من بوابة خفية . انطلقت الى الدرب تحت الظلام . وارتفع صوت تمرة بالوداع الاخير :

- هوى العز ، يا غالي هوانا انتظرت كثير ما نسّم هوانا موت بعز لا عيشة بهوانا ولا دمر ينادي على البواب !

يوسف احمد المحمود

ان نفسها تغلبها . افلتت الراديو ، وهي تسمع اخر محطة اذاعة تقول : والى هنا ، سيداتي ، سادتي ينتهي ارسالنا على ان نستأنف في الساعة ... صباحا ...

تري ! هل يتوقف القتال ؟ لماذا لا تكون الاذاعة في الجبهة ؟ لمثل هذا فليقدموا وصفا حيا . لن انام ، يا دمر ، فانت غير نائم . لينتي معك في كل خطوة لازغرد لك ..

ولكنها في الصباح وقفت عن متابعة الخبر الاول كان كل حماسها قد جفل ، وقالت :

- أكنت ، اذا ، نائما طوال الليل ، يا دمر ، فلم يصل السي تل ابيب !

وبدا لتتمرة انها بلا اقدام . انها مجرد كومة على الارض . حاولت ان تحت نفسها على شيء ، ولكن تلك النفس كسحابة صادفت جوا حارا ، فراحت ترتفع ، وتتمزق هنا وهناك .

اسقاط طائرات ! هذا ، يا دمر لا يعني شيئا . العدو هو الذي يهجم .. ما كنت أظن الا ان رصاصكم خيط اسرائيل تخطيطا .. تصورتها صارت كالفرجال . والله ، ان رجعت حيا فلا انظرن اليك ولو طبقت السماء على الارض .

اظلمت نفسها قبل المساء . كانت موحشة كغابة في اوسيه شتاء ثقيلة .

- لقد مات ابنك حيث مت انت ، وأنا لن أموت هنا . الحجارة لا تصير كلسا الا اذا شبت نارا . قلت له : انك تحظى بمأذونيات كثيرة . الزرع لا ينمو بمطرة واحدة .. ثلاث مرات يتناول الانسان غذاء في اليوم . مرتين فتحت الحرب ابوابها . الذي ينتصر مرتين متواليين لا يقضي على الحرب ، بل يزيدا ضراما . « المفلوب لا يشبع غلوب » بل يستمر في المغالبة حتى يغلب . لن أموت ها هنا .. مرة ثالثة تفتح الحرب ابوابها .. عندئذ اذهب واموت فرحا حيث متنا أما .. تباعدنا في الحياة فلنتجاوز في الموت .

ولم تصدق . صاحت بها احدى الجارات :

- اسرعي .. في السوق عائد من الحرب لا يزال بسلاحه .. كل الذين لهم رجال في الحرب خفوا اليه يستظلمونه .

- نهزئين بي ؟

- هذا وقت مزاح ! ما بقيت امرأة لها « عصيد » في الحرب الا ذهبت اليه . اسرعي قبل ان يذهب ، استدعاه مدير الناحية ، ظنوه هاربا ، ولكنه يحمل مأذونية ..

وردت كأنها لا تصدق :

- هذا وقت يؤذن فيه ذو سلاح .. اليهود هنا !

- قل للجب : بو . يجيبك : بو ! استدركيه قبل ان يذهب .

- من فقدت الزوج لا تبالي بفقد الابن ..

- وماذا يبقى لك ؟

- لا أريد رجلا يبقى بلا أرض ، بل أرضا تبقى بلا رجال . خرابها عزيزة ولا عمارها ذليلة .

- وأنت « تقوقين » مثل البومة في الخراب ! ماذا يعني ان يكون الدنيا كلها لك ، وليس لك فيها زوج ولا ابن ؟

- الدنيا كلها لي اذا قتل زوجي وابني وأنا دفاعا عن شبر يخصنا منها . الملك بالكرامة وليس بشيء اخر .

- وما لك من الارض ؟ صدقت ان القطعة التي لا تزالين تحرثينها صارت لك .

- ما كان فقد كان . والورقة التي تفرط من الشجرة ، لا يمكن ان تعود هي نفسها الى مكانها . اننا نسترد حقوقا طال اقتصابها . ومع هذا فقد ربيت ولدي للشار . والله ، ان لم تكن قد قتلت ، يا دمر فلا فتحت عيني في وجهك .

- اذا ، عيشي وحدك في هذا البيت ، ما اراك ستركين فيه